المحاضرة الثالثة

المدرسة البنيوية التقليدية (مدرسة جنيف)

ومؤسسها سوسير

د. تومان غازي الخفاجي

يُعدُّ العالم اللغوي السويسري (فرديناند دي سوسير) مؤسس المنهج البنيوي الذي انطلق منه علم اللغة المعاصر، بدايات القرن العشرين الميلادي.

وفكرة البنيوية عند سوسير فكرة بسيطة تتلخص في نظرته إلى اللغة بوصفها نظامًا أو كيانا مستقلاً عن صانعه أو الظروف الخارجية التي تحيط بهِ؛ لأنّه نظر إلى هذا الكيان من داخله من خلال مجموعة وحداته المكونة له بوصفها تمثل كلاً قائمًا بذاته. فاللغة هي مجموعة من العناصر المترابطة بعلاقات تشبه رقعة الشطرنج التي لا تتحدد قيم قطعها بمادتها المصنوعة منها وإنّما بمواقعها وعلاقاتها الداخلية التي تجعل لكل عنصر وظيفة، وكل عنصر ليس له وظيفة ليس له قيمة وليس له وجود. فكما أنّ كل قطعة منها تتحدد قيمتها وترتبط بموقعها على هذه الرقعة، كذلك تتحدد قيمة كلّ عنصر لغوي بموقعه التي يؤدي منه وظيفة معينة للنظام ككل.

ولقد سيطرت أفكار سوسير ممثلة بالمدرسة البنيوية التي أنشأ صرحها، على البحث اللغوي في الأربعينيات من هذا القرن سيطرة بالغة بعد وفاته، حتى أنّها جمعت حولها نفرًا غير قليل من الدارسين في جميع أنحاء العالم، وزحزحت المناهج اللغوية القديمة من مواقعها، وانتقل تأثيرها من الدرس اللغوي الصرف إلى ميدان الأدب ونقده، لدرجة أنّها صارت الشغل الشاغل للأدباء والنقاد حتى أوائل السبعينيات.

ويمكن إيجاز أهمّ أفكار سوسير البنيوية (مدرسة جنيف) في أربعة أفكار مترابطة متكاملة لا انفصام لها، أي ليس من السهل أن يُعزلَ واحدٌ منها عن الآخر في نظر سوسير على الأقل، وهذه الأفكار هي:

أولا: ثنائية الدال والمدلول:

حلّلَ سوسير الرمز اللغوي أو العلامة اللغوية الي مكونين نفسيين هما: الدال أو اللفظ من جهة، والمدلول أو المعني الذهني أو المفهوم من جهة أخرى.

والدال هو الجانب الصوتي المادي من العلامة اللغوية وهو الصوت في حالة اللغة المحكية أو الحرف المكتوب في حالة اللغة المكتوبة. والمدلول هو الجانب الذهني وهو لا يشير إلى الشيء بل يشير الي الصورة الذهنية أو الفكرة عن الشيء، ويؤكد سوسير الوحدة بين مكوني العلامة، إذ يشبههما بالورقة ذات الوجهين لا يمكنك تمزيق أحدهما من دون أن تمزِّقَ الوجه الآخر. وسوسير يرى أنّ العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية أو عُرفية ومواضعة بين أفراد المجتمع اللغوية؛ لذلك اختلفت اللغات، فلفظة شجرة عندنا هي tree، عند الانكليز وعند غيرهم غير ذلك. والقيمة اللغوية في المعنى الذي تُحدِّدهُ وتعيّنه مجموعة العلاقات بين الكلمات، لا يمكن فهمهُ أو الوصولُ إليه إلاّ في ضوء هذه العلاقات، فالعلاقة متبادلة بين الدال والمدلول، تجعل كلَّ واحدٍ يستدعي الآخر، اللفظ يستدعي المعنى عند السامع، والمعنى يستدعي اللفظ عند المتكلم.

ثانيا: ثنائية اللغة والكلام:

ميّزَ دو سوسير بين اللغة (language) والكلام (Parole) ، فاللغة: هي النظام النظري الذي يضمّ قواعد اللغة الصوتية والصرفية والتركيبية والدلالية المعجمية، أو هي نظام من العلامات يُعبّر عن فكرة ما، وهي أشبه بالصور المطبوعة على طين المخ بحيث لا تزيد من وزنه شيئا، كما هي برامج الحاسوب.

أما الكلام: فهو بمثابة التحقق العيني لتلك القواعد، وهو عمل فردي للإرادة والعقل، وهو يمثل الممارسة الفردية القائمة على الاختيار والتحقيق. وهو فعل فردي نابع من الإرادة والذكاء، وهو تأليفات من خلالها يستعمل المتكلم قواعد اللسان لغرض التعبير عن فكره الشخصي لذلك يكون مختلفا بين فرد وآخر، وعليه يصعب دراسته ويسهل دراسة النظام الكيان الاجتماعي الذي يستعمله جميع المتكلمين.

اللسانLangue عند دي سوسير: نتاج للملكة اللغوية ومجموعة من المواصفات يتبنّاها الكيان الاجتماعي ليمكّن الأفراد من ممارسة الكلام. واللسان هو النظام الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي المعجمي الموجود في كلّ دماغ وعلى نحو أدق في أدمغة مجموعة من الأفراد.

وقد كان لذلك التمييز – بين اللغة والكلام – أثرٌ كبير في الأعمال البنيوية، إذ نجد لديهم تلك التفرقة بين البنية والحدث الكلامي؛ أي: بين القواعد التي تتحكم في هذه

الأحداث والأحداث نفسها، وأيّهما أسبق وجوداً البنية أم الحدث؟ ودراسة النظام الداخلي أصبحت تعرف باسم (اللسانيات البنيوية)، أو (المدرسة البنيوية)، أو (مدرسة جنيف).

ثالثا: الدراسة الوصفية الآنية والتاريخية التعاقبية:

ميز دوسوسير بين محورين لدراسة اللغة؛ المحور التزامني (Synchronic) والمحور التتابعي التعاقبي (Diachronic)، أو الدراسة الوصفية للغة في لحظة معينة تفترض استقرار النظام، والدراسة التاريخية التي تفترض تطوّر وتغيّر اللغة بمرور الزمن.

الوصف تزامني: يدرس اللغة على اعتبار أنها نظام يؤدي وظيفته في لحظة ما دون وجود اعتبارات للزمن. وأما المحور التتابعي: فهو يدرس اللغة باعتبارها نظاماً يتطوّر عبر مرور الزمن ويرصد التغيرات التي تطرأ على اللغة تاريخياً.

ويرفض سوسير المنظور التتابعي؛ لأنّه يرى أنّ معرفة تاريخ الكلمة لن يفيد في تحديد معناها الحالي، ويشبّه الأمرَ بأنْ يشاهد الشخص مشهداً ثابتًا في الوقت الذي هو يتحرك، لأنّه من الأفضل له أنْ يثبت في مكانه حتى يتمكّنَ من مشاهدة المشهد بشكل واضح، فحركتهُ لن تفيدَ في فهم طبيعة المشهد نفسه. فالمنهج البنيوي يلتزم بمفهوم التزامنية، وهي: دراسة لغة محددة في لحظة معينة من دون النظر في المراحل التاريخية التي مرّت بها، فيدرس اللغة كما هي ومحاكمتها بقوانينها – لا بقوانين غيرها – دون تقعيد لغرض الدراسة نفسها بشكل موضوعي بغية الكشف عن حقيقتها.

ويرى سوسير أنّ التزامنَ والتعاقبَ في اللغة يجب أن يُدرسا في علمين منفصلين؛ لذلك ظهر منهجين في دراسة اللغة: أولهما: المنهج الوصفي التزامني، والمنهج التاريخي، والمنهج الوصفي التزامني أهمّ لأنّ التزامن يرتبط بالنظام، أي باللسان المخزون في الذهن، في حين أنّ التعاقب يرتبط بحركة الزمن وهو مفصول عن علاقات النظام.

وهكذا أدار علم اللغة ظهره للدراسات التاريخية المقارِنة، وأكّدَ إمكان إخضاع كلِّ حالةٍ من اللغة إلى دراسة سكونية متزامنة بغضّ النظر عن التطوّر الذي تُعدّ فيه هذه الحالة امتداداً له؛ وبناء على هذا المفهوم طرح سوسير التمييز بين" التطورية "التي هي دراسة التغيّرات عبر الزمن، و"التزامن "الذي هو دراسة حالات ثابتة من اللغة في فترة

محدودة من التطوّر. فانقسم علم اللغة إلى فرعين:

علم اللغة التاريخي تعاقبي أو تطوري.

علم اللغة الوصفي أو التزامني أو سكوني.

وتنضمّ الطريقتان التزامنية والتعاقبية موضحة إحداهما الأخرى، ولكنّ اللسانيات الحديثة بدأت ترى أنّ المقابلة بين التزامن والتعاقب وهمية جداً، وجيدة فقط في مراحل البحث التمهيدية، وأنّ المقطع السكوني وهمٌ؛ لأنّهُ عبارة عن طريقة علمية مساعدة، وليس شكلاً خاصاً من أشكال الوجود اللغوي.

وجاءت المدارس اللغوية الأوربية بعد سوسير متأثرة بما نادى به، فبذلوا جهودًا لا تنكر، وقدّموا أفكارًا أثرت في الفكر اللغوي والبنيوي، ولا داعي للإطالة فأفكار هذه المدارس وعلمائها أكثر من أن تضمها دراسة مثل التي بين أيدينا.

رابعا: ثنائية الجدول الأفقي والجدول العمودي الايحائي:

الجدول الأفقي هو تدفّق الكلمات في الجملة كلمة بعد كلمة عندما نتكلم، نحو قولنا: (أعطى زيدٌ عمرا درهما)، فكل كلمة من هذه الجملة تخرج إلى الوجود بالتعاقب وتحتل مكانها الأفقي، وكلّ مفردة من هذه المفردات تضمّ جدول عموديا مرادفا أو متضادا أو متجانسا غائبا في الذهن، ظهرت منه كلمة واحدة وغيّبت المرادفة أو المتجانسة معها، وسائر الكلمات غير الموجودة لها وجود ذهني منافس كما يأتي:

أعطى	زيدٌ	الفقيرَ	درهما
منحَ	عمرا	المحتاج	دينارا
كافأ	خالدا		بعيرا
يُعطي			دارا
سيُعطي			ذهبا